سلسلة الموسوعة التراثية للشباب

أيها الولد
لأبي حامد الغزّالي

بقلم

محمد رجب

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

أيها الولد لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي - الرياض

٣٦ص، ١٧×٢٢سم

ردمك: ٧-٩٧١-٢٠-٩٩٦٠

١- التربية الإسلامية ٢- الغزالي، محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ

أ- العنوان

ديوي ٢١٩,٧ ٢٢/١٤٧١

رقم الإيداع: ١٤٧١/٢٢ ردمك: ٧-٩٧١-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

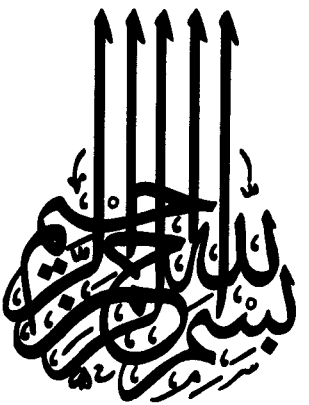
بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالمؤلف:

هو: حُجَّة الإسلام زين الدين، أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الغزَّالي الطوسي، بحر معرفة، وموسوعة حية، يغترف منها طلاب المعرفة على مدى العصور والأزمان.

إنه رجل اكتسب لقب «الغزَّالي» نسبة إلى مهنة والده؛ الذي كان يتعيّشُ من غزل الصوف وبيعه في الأسواق..

ألّف الإمام الغزالي العديد من الكتب الرائدة في كل علم وفن إسلامي، ومن هذه الكتب كتابه الرائد في عالم التربية الإسلامية على مدى العصور والأزمان:

(أيها الولد..!)

أعزائي، هلمُّوا بنا نتعرف على ذلك الرجل العظيم، بحر المعرفة: الإمام الغزالي..

مولد الإمام الغزالي:

كان مولد الغزالي بإحدى قرى مدينة طوس قرب خراسان، شرق إيران.. ومعنى خراسان هو: «بلاد الشمس المشرقة»، ومن أشهر مدن خراسان: طوس ونيسابور وأبيورد وسرخس..

ولد ذلك الرجل الفذ عام (٤٥١) للهجرة الموافق لعام (١٠٥٨) للميلاد.

كانت طوس في الأصل مدينة يحكمها الفرس، إلى أن أتم الله للمسلمين فتحها عام (٣١) للهجرة على يد القائد الإسلامي عبدالله بن عامر بن كريز، زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان ذي النورين رضي الله عنه..

كان الإمام الغزالي الولد الثاني، بينما كان أحمد -الولد الأول- يماثل أخاه محمداً في حب العلم والرغبة في الشرب من ينابيع المعرفة، ولما كان والدهما لم يحظ بقسط وافر من التعليم؛ فقد حرص كل الحرص على أن يربي ولديه ويعلمهما على أفضل وجه، لكن قلة ذات اليد كانت العقبة الكؤود في ذلك السبيل، وبالرغم من ذلك أوصى الأب صديقاً له بتولي مهمة تربية ولديه بعد وفاته.

وما إن لقي الوالد البار ربه حتى نهض الصديق بالمهمة، فاستحضر للولدين أحسن المربين والأساتذة، لكن المال نفد، هنا استدعى الرجل الطيب الولدين وقال لهما: اعلما أنني أنفقت عليكما ما كان لديّ من مالكما الذي تركه أبوكما لكما، وأنا رجل فقير، فما رأيكما؟

أجابه أحمد: الرأي رأيك يا عمنا الطيب.

قال الرجل: الرأي عندي أن تذهبا إلى المدارس لتتعلما، وبعدها تشقّان طريقكما في الحياة..

قال محمد: نعم الرأي يا عماه..!

حكاية الصرة:

سرعان ما التحق الولدان بمدرسة طوس ليُحصِّلا العلم، وكان شيخهما هناك أحمد بن محمد الرازكاني، وقد درسا عليه الفقه على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله..

أقبل الشقيقان على العلم في نَهَمٍ وشوق عجيبين، لكن محمداً أدرك بعد مدة أنه حصَّل أقصى ما يمكنه من تحصيله من العلم في المدرسة، فودَّع أخاه إلى جرجان، المدينة المشهورة بحدائقها الرائعة وبساتينها العامرة التي ترويها مياه النهر.

لماذا اتجه محمد إلى جرجان بالذات؟!

ليدرس على عالم جرجان أبي نصر الإسماعيلي.

هناك لزم الغزالي حلقة أستاذه يدوِّن كل ما يسمعه، حتى جمع من ذلك مقداراً عظيماً أودعه «صرَّة» كان يحرص عليها حرصه على حياته.

وكالعادة، ما إن أيقن الغزالي أنه حصَّل من العلم قدر ما تطيق نفسه النهمة إلى المعرفة حتى قرر العودة إلى طوس، إلى أخيه وإلى أستاذه الرازكاني، وحمل متاعه القليل وفيه «صرة المعرفة»، وانضم إلى قافلة مسافرة إلى طوس وهو يردد لنفسه في سعادة وفخر:

– العلم صيد والكتابة قيده...!

لكن وا أسفاه، لم تأتِ الريح بما تشتهي السفن، ففي الطريق هجمت عصابة من قُطَّاع الطرق على القافلة، ونهبت الغالي والرخيص من المال والمتاع، وكان من ضمن ما نهبته الصرَّة العزيزة..!

كاد الغزالي يُجَنُّ؛ إذ ظلَّ العامَ تلو العام يدوِّن العلوم التي تلقاها عن أستاذه في جرجان.. أيفرِّط بسهولة في كنزه الثمين دون أن يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؟!

ما إن ذهب اللصوص بغنيمتهم حتى تبعهم الغزالي، ظلَّ يسير خلفهم مسافة طويلة إلى أن تنبهوا له، فشهروا في وجهه أسلحتهم، وواجهه زعيمهم بوجه كالحٍ وعينين يتطاير منهما الشرر وهو يصرخ فيه سائلاً بصوت راعد: ماذا تريد يا ولد؟!

وأمسك بتلابيب الغزالي كيلا يفلت.. لكن الغزالي لم تهتز له شعرة وأجاب في هدوء: أسألك باسم الذي ترجو منه السلامة أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به..!

فعاد زعيم العصابة يسأله: وما هي تعليقتك..؟!

أجاب محمد: إنها كتب من تلك المخلاة، هاجرت من بلدي لأسمعها وأكتبها وأعرف علمها..!

ضحك الرجل، وضحك اللصوص، وقال له الزعيم: أتدعي أنك عالم يعرف ما بداخل المخلاة..؟ كيف تدعي هذا وقد أخذناها منك؛ فتجردت من المعرفة، وبقيت بلا علم؟

طأطأ الصبي رأسه خجلاً، فقد أدرك أنه لا يجب أن يضيّع علمه بهذه الطريقة، وعاهد الله أن يجتهد في حفظ العلم عن ظهر قلب حتى لا يضيع منه..!

وشاء الله سبحانه أن يرقَّ قلب الزعيم للصبي، فأمر أتباعه أن يردوا للصبي مخلاته..!

الإمام الجويني:

طال مقام الغزالي بطوس ثلاث سنين، يحفظ ويستوعب ما بتعليقته من معارف وعلوم إلى أن أتم حفظها، واشتاقت نفسه الرحيل إلى نيسابور

ليكمل تعليمه ودراسته على يد عالمها الشهير إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، فرحل من فوره ونفسُه تتوثب إلى اللقاء بالجويني العظيم..

كان أبوالمعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، الملقب بضياء الدين من أشهر المعلمين في عصر الإمام الغزالي، وكان قد ألف العديد من الكتب في الدين والفقه والعلوم، ومن أشهر تلك الكتب: (الإرشاد في أصول الفقه)، و(لباب الإرشاد في أصول الاعتقاد)..

ظل الغزالي إلى فترة طويلة يدرس على إمامه الجويني؛ الذي كان شديد الإعجاب والإشادة بتلميذه النجيب حتى وصفه بقوله:

- الغزالي بحرُ معرفة..!

ومن شدة اعتزاز الأستاذ بتلميذه أذن له بتأليف الكتب وتدوين الرسائل، ومن أشهر ما دونه الغزالي وهو في مرحلة الدرس كتاب «المنخول» الذي أعجب الأستاذ أيما إعجاب، مما حدا به إلى مدحه وتقريظه في كل حين..!

لكن سبحان من له الدوام، فها هي روح الجويني تصعد إلى بارئها، ويشعر الغزالي بفداحة خسارته في شيخه وإمامه، حتى إنه بقي في نيسابور لا يبرحها طيلة ست سنوات بعد وفاة أستاذه...

لكن يلح هنا سؤال هام:

ترى ماذا كان الغزالي يفعل في هذه السنين بنيسابور؟!

قام الغزالي بالتدريس في مدرسة الجويني بنيسابور طيلة هذه السنين، وبقي على ولائه لأستاذه الجويني إلى أن استدعاه الوزير (نظام الملك) إلى بغداد ليتولى التدريس في المدرسة النظامية.

قَبِلَ الغزالي عرض الوزير ورحل إلى بغداد..!

في المدرسة النظامية:

كان الوزير قوام الدين الحسن الطوسي الملقب بنظام الملك قد أنشأ المدرسة النظامية، نسبة إلى لقبه، لتدريس العلوم لطلبة العلم، ولما سمع الوزير بما بلغه الغزالي من مكانة في مدرسة الجويني اشتاقت نفسه إلى لقياه وإلى تكليفه بالتدريس في مدرسته ببغداد.

الطريف أن الغزالي وفد على نظام الملك في معسكره خارج بغداد، وإذا بالوزير قد أعد له ثلة من العلماء في المعسكر لتناقشه في العلوم التي حصّلها واستوعبها.

لم ترتعد فرائص الغزالي من المفاجأة غير المتوقعة، بل راح يناقش ويحاور العلماء، كُلاً في تخصصه، بالحجة القوية والدليل الدامغ، إلى أن

كانت له الغلبة وكان له الفوز على خصومه في براعة ويسر حبستا أنفاس الوزير نظام الملك، ووجد نفسه يهتف من أعماقه:

– يا لك من حجة أيها الشاب..!

الأزمة الكبرى:

استدعى محمد أخاه أحمد الغزالي ليقيم معه في بغداد، فهل أحدثكم –يا أعزائي– عن أحمد الأخ الأكبر للغزالي؟

ذكرت من قبل أن الإمام الغزالي قد غادر أخاه في مدرسة طوس ليرحل إلى جرجان ثم إلى نيسابور، فكيف كان الأخ الأكبر يقضي وقته في طوس؟ وكم بلغ في مشواره التعليمي؟

اطمئنوا يا أعزائي..! لقد حصّل أحمد العلم في طوس، واشتغل بالوعظ، ولقب بمجد الدين، وتكنى بأبي الفتوح، وألف العديد من الكتب المفيدة في التصوف والفقه والتربية، ومن أشهر هذه الكتب كتاب (الذخيرة في علم البصيرة)، وكتاب (لباب الإحياء) وهو موجز لأشهر كتب حجة الإسلام (إحياء علوم الدين)، وكتاب (مدخل السلوك إلى منازل الملوك)..

هذه لمحة عن سيرة الأخ الأكبر أحمد، ولنعد إلى الإمام الغزالي.

مكث الغزالي أربع سنين بالمدرسة النظامية، شهد له جميع الخلق أثناءها بأنه أوحد أهل زمان في المعرفة.!

في تلك الفترة كان قلم الغزالي يسيل بياناً وتأليفاً للكتب، ومن كتب هذه الفترة كتابه (تهافت الفلاسفة)، وكتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) وكتابه (الفتاوى).

لكن ألمت بالغزالي حادثة كادت تعصف به عصفاً وتقضي عليه القضاء المبرم..

لقد تمكَّن من الإمام الغزالي مرضٌ عجيب، أصابه فجأة، وأقعده عن النطق، وجعله لا يذوق الطعام، حتى هزل بدنه وضعف ضعفاً ملحوظاً، وإذا به يعتزل التدريس بالمدرسة النظامية ويقرر الخروج من بغداد، فيعهد إلى أخيه بأن يتولى التدريس نيابة عنه في المدرسة النظامية..

ويرحل الغزالي إلى الحجاز، ويحج إلى بيت الله الحرام، ثم يقصد دمشق سنة (٤٨٩) للهجرة ويعتكف بجامعها الأموي، يحيا حياة الزهد والتقشف، معتزلاً الناس، مشتغلاً بالتأليف في العلوم النافعة..

وكان نتاج هذه الفترة كتابان رائعان هما:

* المنقذ من الضلال..
* إحياء علوم الدين..

وقد ظل الغزالي عشر سنين في تأليف كتاب (الإحياء) وقد ضمَّن كتابه أبواباً من الزهد والآداب والمواعظ، وللعلماء مآخذ على هذا الكتاب من حيث استشهاده بالأحاديث الضعيفة وغير ذلك مما هو مذكور في ترجمته، وقد خرَّج الحافظ العراقي أحاديث كتاب (الإحياء) مبيناً في كثير منها حالها من الصحة والضعف.

والآن هيا -يا أعزائي- لنعرف قصة ما حدث للغزالي من أزمة في مدرسة نظام الملك في بغداد.. هيا نطالع معاً ما دونه الغزالي بنفسه في كتابه: (المنقذ من الضلال).. إنه يقول:

«ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ، وقد أنافت السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغَّل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحَّم على كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميّز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كُنْهِ فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على

سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه إلى أسباب جرأته في تعطيله وزندقته».

لقد بلغ الغزالي في تحصيل العلوم منزلة قل أن يرتفع إليها عالم في زمانه، وكان هذا الجهد المضني سبباً في هزال بدنه، وضعف حواسه، مما اضطره إلى مفارقة بغداد..

يصف العلامة السبكي ما وصلت إليه حال الإمام الغزالي بصدق فريد في بابه، فيقول في (طبقات الشافعية الكبرى):

«وعلت حشمته ودرجته ببغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، فانقلب الأمر من وجه آخر، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة، وممارسة الكتب المصنفة فيها، وسلك طريق الزهد والمثالة، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه، وقصد بيت الله وحج، ثم دخل الشام وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين، وأخذ في التصانيف المشهورة، التي لم يسبق إليها مثل: (إحياء علوم الدين)، والكتب المختصرة منها مثل: الأربعين وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم، وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل وتهذيب المعاش،

فانقلب شيطان الرُّعونة وطلب الرئاسة والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق والفراغ من الرسوم والترتيبات، وتزيا بزي الصالحين، وقصر الأمل ووقف الأوقات على هداية الخلق، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية، والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقظ، بشيء من أنوار المشاهدة، حتى مرن على ذلك ولان.. ولقد زرته مراراً، وما كنتُ أجد في نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليه من الوعارة، وإنجاس الناس والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستخفاف، كبراً وخيلاء، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبادة وطلب الجاه والعلو في المنزلة، إنه صار على الضد، وتصفى من الكدورات».

أسلوب الغزالي:

يتميز أسلوب الإمام الغزالي بالسهولة والبساطة، والخلو من المحسنات اللفظية، إنه أسلوب ينطلق في رشاقة وبلا توقف، كأنما صاحبه يتحدث حديثاً عادياً إلى شخص يحاوره. يستشهد الغزالي في حديثه بالأدلة والبراهين ليؤيد المعنى الذي يقصده..

هل عاد الغزالي للتدريس؟

عاد الغزالي إلى نيسابور، ليعاود التدريس في المدرسة النظامية بإلحاح من الوزير فخرالدين بن نظام الملك.

لكن بأي شيء اهتم الغزالي في فترة تدريسه الثانية؟

لقد ركز الغزالي جهوده في التربية الدينية مؤكداً على أن عملية التلقين أو التربية مهمة للمتعلم، وهي تشبه بذر البذرة في التربة لزراعتها، هذه البذرة تنمو وتترعرع وترتفع لتصير شجرة طيبة راسخة؛ أصلها ثابت وفرعها في السماء..!

يقول الغزالي عن التربية الدينية في كتابه (الإحياء):

«إن الدين ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشأته ليحفظه حفظاً، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً، فابتدؤوه بالحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان، والتصديق به، وذلك مما يحصل من الصبي بغير برهان».

ثم لم يلبث الغزالي أن اعتزل التدريس وعاد إلى وطنه، وبنى مدرسة ومسجداً، وتوفي على خدمة الناس، وجالس العلماء وشرح أحاديث رسول الله ﷺ إلى أن وافته المنية سنة (٥٠٥) للهجرة الموافقة لسنة (١١١١) للميلاد.. وله من العمر أربع وخمسون سنة..

لماذا سمي حجة الإسلام؟

سمّي الغزالي بذلك الاسم يا أعزائي لأنه دافع عن الإسلام أجلَّ دفاع ضد كل من حارب الإسلام.

لقد دافع عن الإسلام مستخدماً من الأدلة والبراهين ما هدم به معتقداتهم الزائفة، وفضح به نواياهم الخبيثة، فاستحق ذلك الاسم عن جدارة..

لماذا ألّف الغزالي كتابه (أيها الولد)؟

رغب أبوحامد الغزالي في تعليم الناس العلوم التي توصلهم إلى الكمال.

كان الغزالي في هذه المهمة الخطيرة يتأثر خطى الرسول ﷺ الذي حث على العلم، وبيَّن أن العلماء ورثة الأنبياء حيث قال في الحديث الصحيح: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**».. إن الهدف من هذه المهمة الصعبة التقرب من الله سبحانه والسعادة في الدنيا والآخرة.

كان الإمام الغزالي مربياً ومصلحاً اجتماعياً ندر أن يَجُودَ الزمان بمثله..!

نشر الإمام الغزالي آراءه التربوية التعليمية التهذيبية في عدة كتب هي:

* فاتحة العلوم.
* ميزان العمل.
* إحياء علوم الدين.
* أيها الولد.

ركز الغزالي جهده التربوي على قاعدتين أساسيتين هما:

- نواحي المعرفة أو المواد الدراسية التي على المريد أو المتعلم أن يحصلها ويستوعبها..
- المنهج العلمي المستخدم في تدريس هذه المواد..

ويسوق الغزالي النصوص الدالة على ذلك، ويؤكد على ضرورة اقتران العلم بالعمل، يقول الغزالي:

«فمن علم وعمل بما علم فهو الذي يُدعى عظيماً في ملكوت السموات، فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب عبيره وهو طيب، ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلّد أمراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه».

ولكن هنا سؤال ملحٌ: أيهما أفضل: العلم أم المال؟!

يؤكد الغزالي في الإجابة عن هذ السؤال: أن العلم مثل المال، فكما أننا نسعى لنكسب المال علينا أن نسعى لنكسب العلم، والعلم تفضل قيمته قيمة المال؛ لأنني حين أكتسب العلم فإنه يغنيني عن سؤال من يجهل العلم، كما أنني أفكر فيما حصلت من العلم وأتمتع به، ثم يمكنني أن أعلم الناس مما علمت، فتعم الفائدة وينتشر الخير..!

هيا بنا نتعرف على السبب الذي حدا بالغزالي إلى تأليف كتابه البديع: (أيها الولد)..!

لقد طلب واحد من تلامذة الإمام الغزالي من أستاذه أن يكتب له كتاباً يحتوي على مجموعة من النصائح المفيدة تكون معه مدة حياته، ويعمل بما فيها طوال عمره.

لبّى الإمام الغزالي الدعوة، وصنّف كتاباً رائعاً أطلق عليه اسم: (أيها الولد)، وشرح فيه كل ما يحتاجه المعلم والمتعلم من أصول التربية وفنونها، حيث كان دليلاً ومرشداً لمن جاء بعده واهتم بمسائل التربية وشؤون العلم والتعليم.

ميزة الكتاب (أيها الولد) الكبرى أنه تضمنَ آراء سديدة في التربية تبنّاها من جاء بعده من أعلام التربية من أمثال روسو وفروبل وهربارت . . فما الذي تضمنه هذا الكتاب من آراء؟ . . وماذا قدَّم من مبادئ رائدة في ميدان التربية؟ . .

محتويات الكتاب:

يحتوي كتاب (أيها الولد) على أربع وعشرين نصيحة، عنوانها نداء جميل رائع هو: (أيها الولد . . !) .

يوّجه الإمام الغزالي نداء إلى طالب العلم في فاتحة الكتاب، يقول الغزالي لمريده: إن الرسول ﷺ هو أساس كل نصيحة؛ لأنه القدوة التي تُحتذى، وأنه لا حاجة لطالب العلم بنصائح الغزالي، إذ يكفيه الرسول ﷺ فهو القدوة والأساس . . فهل هناك تواضع يماثل تواضع ذلك المعلم والمربي الغزالي . ؟!

الدنيا علم وعمل..!

في نصائحه (الخمس عشرة الأولى) يؤكد الإمام الغزالي أنه لا بد من ارتباط العلم بالعمل، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ .

ويوصي الغزالي طالب العلم بمواصلة العمل؛ لأن العلم وحده لا ينجي صاحبه من غضب الله وعقابه، ويضرب الغزالي مثالاً حيّاً على أهمية العلم المقترن بالعمل.. هو مثال الرجل الشجاع والأسد..

الشجا والأسد:

سافر رجل شجاع في الصحراء ومعه أسلحة، فهاجمه أسد عظيم مهيب، فنفعته الأسلحة، وقتل الأسد، ونجا بنفسه من الموت.

هذا مثال طيب على أهمية العمل بالنسبة للإنسان العالم، فلولا أن العالم قد تسلح بالأسلحة المناسبة من العلم والمعرفة لما استطاع التغلب على ما في الدنيا من مغريات ومكائد. هنا تأكيد على قيمة العمل، (فلو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل).

يقول الغزالي: «ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل».

يستشهد الغزالي بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدليلاً على صحة رأيه.. ومن هذه الآيات القرآنية:

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، و: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ [الكهف: ١١٠]، و: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، و: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾ [الفرقان: ٧٠].

ومن الأحاديث النبوية قول رسول الله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً**».

ويحذر الغزالي طالب العلم أن يكون الباعث على العلم هو كسب الدنيا وما فيها من متاع، والمباهاة بالجاه والسلطان، فهذا هو الخسران المبين، بل يجب أن يكون طلب العلم لإحياء شريعة النبي ﷺ، وتهذيب الأخلاق، وكسر النفس الأمارة بالسوء.

ويحذر الغزالي طالب العلم كذلك من الاشتغال بعلوم لا تنفع كالسحر والشعوذة والفلسفة. إن على طالب العلم أن يشتغل بتحصيل العلوم النافعة مثل العلوم الشرعية، ومن ذلك أصول الدين كالقرآن والسنة، والفروع كالفقه، والمقدمات كعلوم اللغة والنحو، والمتممات وهي علوم متصلة بالقرآن كالتفسير والقراءات، والعلوم غير الشرعية أو علوم الدنيا كالطب والحساب والصناعات والأدب والتاريخ..

ويؤكد الغزالي أنه يجب أن يكون لطالب العلم نصيب من قيام الليل. وقال النبيّ ﷺ في ابن عمر رضي الله عنهما: «**نِعْمَ الرجلُ عبدالله لو كان يصلي من الليل**» رواه البخاري ومسلم، فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً..

ويسوق الغزالي من وصايا لقمان الحكيم لابنه قوله: «يا بني، لا يكونن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم».

من ذلك يا أحبائي نستفيد فائدة عظيمة هي: أنه يجب على الإنسان أن يكون أكثر ذكاء وعقلاً وفهماً من الديك، وعليه أن يسارع ويبادر إلى العبادة..!

فهيا يا أعزائي، سارعوا إلى العلم والعمل، لأن العلم بلا عمل صالح ومتابعة لأوامر الله ونواهيه ضلال، إذ ينبغي أن يكون قول الإنسان وفعله موافقَين للشرع..!

المنهج المطلوب لمن يريد العلم الحقيقي:

على الطالب المريد للعلم الحقيقي أن يعتني بأربعة أمور ويضعها نصب عينيه، وهذه الأمور الأربعة هي:

أولاً: اعتقاد صحيح لا مكان للبدع فيه، أي: إيمان بالله سبحانه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشرّه..

ثانياً: توبة نصوح، لا يرجع فيها الإنسان إلى الذنوب..

ثالثاً: استرضاء الخصوم، والعمل على القضاء على النزاع..

رابعاً: تحصيل علم الشريعة قدْرَ ما تؤدى به أوامر الله تعالى..

عن طريق هذه الأمور الأربعة يستطيع طالب العلم الوصول سالماً إلى بر الأمان، والظفر بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة..

لكن ترى ما هو المنهج الدراسي الذي طرحه الغزالي ليلتزم به الطلاب؟

إن ذلك المنهج يشمل القرآن الكريم وعلومه، وعلوم اللغة، وعلوم الطب والحساب، وعلوم الثقافة كالشعر والتاريخ..

المبادئ العامة للتربية عند الغزالي:

يحرص الإمام الغزالي على وضع مبادئ عامة لتربية طلاب العلم، إن التزموها صاروا من أفضل أهل العلم الذين يحبهم الله ورسوله، ومن هذه المبادئ:

* الحرص على إقامة علاقة عاطفية متينة بين طالب العلم وأستاذه، وهي علاقة مبنية على الحب والعطف والثقة والاحترام المتبادل.

* ضرورة أن يتصف المعلم بالأمانة والتفاني في العمل، والشفقة بالمتعلم والتسامح وسعة الصدر، وأن يكون المعلم متواضعاً لله، طاهر النفس من الرذائل؛ مستقيماً.

ينادي الغزالي بأن تتسع دائرة العلم والمعرفة؛ لتشمل جميع الموضوعات والجوانب التي تساهم في تربية طالب العلم، وتنشئته نشأة سليمة تمكنه من خدمة مجتمعه..

ويوصي الغزالي بالتدرج في التعليم، بحيث تؤدي دراسة بعض العلوم إلى دراسة بعضها الآخر، وأن نميز بين الأفراد الذين يريدون أن يتعلموا؛ من حيث الاستعداد العقلي وقدرتهم على التعلم، فعملية التعليم ينبغي أن تتمشى مع المستوى العقلي للمتعلم، ولا بد أن يدرس المعلم نفسية طالب العلم وطباعه وخصاله.

ويصنف الغزالي المتعلمين أصنافاً أربعة هي:

* الشخص الجاهل المغفل، الذي لا يميز بين الحق والباطل أو الجميل والقبيح، والشخص من هذا النوع يسهل تعليمه وتربيته..

* الشخص الجاهل الضال الذي لم يتعود العمل الصالح، وهو شخص يكون تعليمه أكثر صعوبة من صاحبه السابق.

* الشخص الجاهل الضال الفاسق، ويندر لهذا الشخص أن يتعلم..

* وأخيراً الشخص الجاهل الضال الفاسق الشرير، وهذا الشخص تستحيل تربيته وتعليمه؛ لأنه شرير بطبعه ولا يمكن توجيهه إلى الخير.

فوائد العلم:

الإمام الغزالي دائماً يضرب الأمثال بسرد الحكايات.. وهذا الأسلوب من أروع الأساليب للتعليم والتربية.. ترى ما هي فوائد العلم التي حصلّها طالب العلم من أستاذه الذي لزمه ثلاثين سنة كاملة..؟!

كان الأستاذ (أبوعلي شقيق بن إبراهيم البلخي)، قد سأل تلميذه حاتماً الأصم قائلاً:

– صاحبتني منذ ثلاثين سنة، ما حصّلت فيها..؟!

قال:

– حصّلتُ ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه، لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها.

قال البلخي:

– ما هي..؟!

(قبل أن نسرد على أسماعكم، ونسطر أمامكم على الورق الفوائد الثماني؛ أوصيكم يا أولادي بأن تحفظوها وتعوها، وتضعوها لكم دليلاً ومرشداً لينفعكم بها الله في الدنيا والآخرة..).

راح الطالب النابه حاتم الأصم يعدّد الفوائد الثماني على أسماع أستاذه وهي:

أولاً: ضرورة التمسك بأداء صالح الأعمال، فأفضل محبوب للمرء ما يدخل معه في قبره ويؤانسه فيه، بحثت عنه فما وجدته غير الأعمال الصالحة، فأخذتها محبوباً لي، لتكون سراجاً لي في قبري، وتؤانسني فيه، ولا تتركني فريداً.

ثانياً: طاعة الله سبحانه وتعالى، فالقرآن حق صادق، فبادرت إلى جهاد نفسي ومنعها عن هواها، حتى رضيَتْ بطاعة الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: الكرم، إن قول الله تعالى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ [**النحل**: ٩٦]، خير دليل ومرشد لما ينفعني في الآخرة، فبذلت مالي في سبيل الله، وفرّقته بين المساكين ليكون ذخراً لي عند الله تعالى.

رابعاً: عزة الإنسان في تقوى الله، إن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [**الحجرات**: ١٣]، خير من جمع الأموال، وكثرة الأقوام والعشائر والأولاد، فاخترت التقوى..!

خامساً: الرضا بما قسمه الله تعالى، لأن قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف: ٣٢]، يدلنا على أن سبب كل الشرور هو الحسد في المال والجاه والعلم، فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى، وتركت الحسد.

سادساً: مسالمة الناس والبعد عن العداوة، لأن الناس يعادي بعضهم بعضاً فتأملت قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]، فعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.

سابعاً: الرزق مضمون من الله تعالى، لأن الناس يطلبون الرزق والمعاش من حلال وحرام، تأملت قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦]، فاشتغلت بعبادة الله وحده، ولم أطمع في سواه.

ثامناً: التوكل على الله، لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]، فتوكلت على الله تعالى وحده، ولم أعتمد على مخلوق فانٍ.

ترى بماذا نخرج من هذه الفوائد العظيمة؟

ألا ترى بأن أروع طريق لنا في حياتنا هو العمل الصالح، الذي يكون بطاعة الله تعالى، وبالزكاة والتقوى، والرضا بما قسم الله، والتوكيل عليه.

إن العمل الصالح هو الوسيلة التي يتقرب بها العبد إلى خالقه؛ لذلك وجه الغزالي إليه كلَّ جهوده، ومن أجل هذه الفائدة الأولى والرئيسة يجعل الفوائد الباقية تابعة لها..

لكن هل للمعلم دور حيوي في ذلك..؟!

إن الجواب عند مؤلف الكتاب -الإمام الغزالي- ذاته؛ إنه يعلّق على الفوائد جميعها بأن دور المعلم هام؛ إذ عليه مهمة شاقة وجليلة: أن يخرج الأخلاق السيئة من طالب العلم بتربيته، ويزرع مكانها الخلق الحسن.

دور المربي عند الإمام يماثل دور الفلاح الذي يقلع الشوك من الأرض، وينزع النباتات الطفيلية من بين الزرع، ليحسن نباته، ويعطي محصولاً وافراً، ولقد بعث سبحانه وتعالى إلى البشرية رسوله محمداً ﷺ ليرشدهم إلى سبيل الله، ولما ارتحل عن الدنيا قام الخلفاء الراشدون بهذا الدور العظيم.

شروط المربي وطالب العلم:

في النصائح الأخيرة يُفصِّل الإمام الغزالي القول في شروط المربي أو الأستاذ ليتمكن من القيام بمهمته التربوية على أحسن وجه..

ما هي الشروط التي يجب توافرها في المربي ليؤدي رسالته العظيمة؟

إن المربي الصالح للمهمة يجب أن يكون:

- عالماً.
- ومعرضاً عن حب الدنيا، وحب الجاه والسلطان.
- ومروِّضاً لنفسه، قليل الأكل والقول والنوم، كثير الصلاة والصوم والصدقة.

أما التلميذ فمن شروطه:

- التوكل على الله، وذلك بالاعتقاد بأن ما قدر له سيصل إليه، وبأن ما لم يكتب له لن يصل إليه..
- احترام شيخه المربي في الظاهر والباطن.
- الامتناع عن مجالسة أصحاب السوء.
- الاستقامة وذلك بحسن الخلق مع الناس.

منهج الغزالي في التوكل لم يكن من فراغ، إن ذلك المفكر الكبير قد استمد منهجه هذا من حديث مشهور لرسولِ الله ﷺ أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن عباس: كنتُ رديف النبيّ ﷺ فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة**

لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».

والإخلاص يقتضي أن تكون أعمال التلميذ كلها لله تعالى، فلا يهمه مدح الناس ولا ذمهم؛ لأن الرياء والنفاق يتولدان من تعظيم الخلق، وهذا هو الشرك الخفي، وعلاج ذلك بأن يعلم طالب العلم أن الناس مسخرون بقدرة الله تعالى ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً!..

ترغيب وترهيب:

ويهيب الإمام الغزالي بطالب العلم بأن يسرع بأداء أفعال معينة، وفي الوقت نفسه يمتنع عن أفعال أخرى.. فما هي الأفعال المرغوبة التي يحبّبها الغزالي إلى نفس طالب العلم..؟!

على طالب العلم أن يتبنى أربعة أشياء ليصل إلى طريق الحق:

- أن تكون معاملته مع الله تعالى، فعليه أن يخلص العبادة والنية لله تعالى وحده..

- أن يحب للناس ما يحبه لنفس لقول رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» رواه البخاري ومسلم.

- أن يعمل على إصلاح قلبه وتزكية نفسه وتطهيرها، وأن يعرض عن شهوات الدنيا، ويشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته لقول رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»** رواه مسلم.

- أن لا يجمع من الدنيا إلا بمقدار ما يعينه على طاعة الله ويكفيه سؤال الخلق..!

أما الأشياء التي يحذر الغزالي طالب العلم من إتيانها فهي:

- مناظرة الناس وجدالهم؛ لأن في ذلك خطراً عظيماً، فالجدال منبع كل الأخلاق الذميمة كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة، فإذا كان لا مفر من الجدال، فعلى طالب العلم أن يحرص على أن ينتهي ذلك الجدال بإقرار الحق، على أن يكون الجدال في المكان الخالي من المستمعين، وليس على مرأى من الناس..!

- مخالطة أصحاب السلطان والجاه، فإن اضطر طالب إلى مخالطتهم فعليه أن يترك مدحهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الإنسان شخصاً بما ليس فيه، فلا يصح مدح الظالم بأنه في غاية العدل..!

- قبول هدايا الأمراء والسلاطين؛ لأنها تسبب النفاق والتملق مما يفسد الأخلاق..

والآن ماذا نفيد من الكتاب الجميل: أيها الولد..؟!

لن أحدثكم -يا أعزائي- عن الفوائد الكثيرة التي نحصل عليها من الكتاب الرائع.. فهذا يتطلب أن أكتب لكم المجلدات العديدة.. لكنني سأكتفي ببعض الأشياء التي يمكنكم العمل بها في حياتكم.. ومن هذه الأشياء النافعة:

أولاً: أن الصبي أمانة عند والديه، وهو صفحة بيضاء قابلة لأن يكتب عليها الأشياء الجميلة، فإن عوّده أبوه الخير نشأ على حب الخير، وإن عوّده على الشر صار شقياً..

ثانياً: أن رسالة العلم وغايته العظمى إحياء شريعة الرسول ﷺ، وتهذيب الأخلاق، وكسر النفس الأمارة بالسوء، يقول الغزالي في كتابه (أيها الولد):

«أيها الولد، كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرَّمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كان لنيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك إحياء شريعة النبيّ ﷺ، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء؛ فطوبى لك، ثم طوبى لك».

ثالثاً: أن اللعب عملية مهمة في حياة الطفل؛ لأن له ثلاث وظائف أساسية تسهم في نمو الطفل، وهي:

١- ترويض جسمه وتقوية عضلاته، مما يؤدي إلى نموه على نحو صحيح وسليم، وهذه هي الوظيفة العضلية.

٢- جلب السرور والبهجة إلى نفسه، وهذه هي الوظيفة الترفيهية.

٣- إراحة الصبي من عناء الدروس، مما يسهل عليه عملية التعلم، وهذه هي الوظيفة النفسية؛ لأن اللعب صمام أمن لازم للتوازن النفسي عند الصبي.

هل سبق الغزالي برأيه في اللعب أساتذة التربية المعاصرين..؟!

لقد كان الغزالي أستاذاً لأستاذ التربية الألماني فردريك فروبل مؤسس رياض الأطفال..!

فمن هو فروبل هذا، وبماذا نادى..؟!

ولد فردريك ولهلم أوجست فروبل عام ١٧٨٢ وعاش سبعين سنة، وفي سن الثالثة والعشرين عمل بالتدريس في معهد تربوي بمدينة فرانكفورت، إلى أن افتتح أول معهد تربوي لرياض الأطفال عام ١٨١٦ في كوخ أحد الفلاحين، وكان عدد طلاب المعهد خمسة من التلاميذ الصغار..

بعد ذلك انتشرت معاهد التربية للصغار وأطلق عليها اسم: (رياض الأطفال).

نادى فروبل في كتابه الشهير: (التربية عن طريق النمو) بأن اللعب مهم جداً في المراحل الأولى من التربية، وأكد أن المربي يستطيع من خلال اللعب أن يدمج الطفل في المجتمع والحياة الاجتماعية، وأن يلقنه معنى الاستقلال والتعاون، وأن يغرس فيه عادة الابتكار..

وسبق الغزالي بآرائه التربوية الفيلسوف والمربي الفرنسي جان جاك روسو، فقد نادى بأن الأب والأم هما أساس التربية للطفل منذ لحظة ميلاده وحتى سن الخامسة، وذلك الرأي نادى به روس في كتابه المعروف (إميل).

شرح الغزالي في كتابه (أيها الولد) كل ما يحتاجه المربي وطالب العلم أو المعلم والمتعلم، فقد كان معلماً، وحرص في كل كتاباته على إبراز دور المعلم..!

ومن أجمل آرائه التعليمية التربوية مراعاة نفسية المتعلم؛ لأن طلاب العلم مختلفون من حيث الاستعداد للتعليم، فهناك شديد الذكاء، ومتوسط الذكاء، وبطيء الفهم، فكيف يستوي الثلاثة في تحصيل العلم..؟!

ما أروع ما قدم لنا الغزالي من أطباق شهية، إن تناولنا مما حوته من ثمار كنا سباقين إلى إحياء شريعة النبي ﷺ.

* * *